

هوامش

ثقافية

يقدمها : سعيد اللاوندى

فكر عربى تفتح الملف الساخن

الغزو الثقافى المصرى للعالم العربى.. حقائق وأوهام
ميلاد حلمى : الثقافة فى مصر فى حالة دفاع عن النفس!!

لا نذكر إلا المثال الذى يلقى اعجاب معظم المصريين المهتمين بالفكر والادب والفن وسواء اشتراكية علمية ماركسية مازالت تمارس تأثيرها على الكثيرين وإن تراجمت لتحتل تمارس تأثيرها كمصطلح فضفاض مكانها، تحت هذا المصطلح تجمع كل من سقطت رايته فى ظل النظام العالمى الجديد. وكان المصطلح فضفاضاً لدرجة انه استطاع ضم كل من عارض هجمة التيار السلفى.

● النوع الثانى هو التيار الاسلامى، وهو صاحب التيار الاسلامى خارج دائرة الصراع فى مصر، وغيرها من البلاد العربية، كان دائم الوجود ولكن الغريب ان النموذج الذى ساد بعد التفرغ الثقافى الذى قام به السادات فى السبعينات هو النموذج الوهابى او حتى المهدى او السنوسى ومن حق الجميع ان يتساءل: ماذا وراء هذا التيار؟

فالشئ المنطقى ان عودة الاسلام، وهو صاحب رسالة عالمية - لحلبة الصراع الحضارى كان لابد ان تتم بعودة التيار العقلى التوفيقى، فهو وحده القادر على ربط الاسلام بالحضارة الحديثة القائمة على العقل، وهكذا وجدنا الساحة - تمتلئ بالتفسيرات الخزعية واجهزة البث تجند نفسها لنشر ثقافة غيبية تجهيلية تعمل على تسطيح العقل وبث الخرافات، فكثر الحديث فى ذلك الوقت - عن الجن، والعفاريت.. ودارت المناقشات عن الحياة الجنسية عند الملائكة.. واختلقت الآراء حول عذاب القبر.. ووصل الامر الى المدرسة المصرية والقرارات الدراسية فاكشفنا الاخطاء العلمية فى الكتب.. وتغير موقف المجتمع من المرأة.. كأننا نعود انام رشيد رضا الذى سمي تحرر المرأة بالتهتك.. ورائنا العودة الى الحساب، وارتدى الرجال الزى الباكستاني أو الخليجي.. وهكذا ظهر الكتاب النفطى، والأغنية النفطية، والموظف النفطى، والراقصة النفطية، والمجلات والصحف وشركات توظيف الأموال.. وفرق محاربة الروس فى أفغانستان، والأفغان العرب، والقنايل.. وجمعيات التكفير والهجرة.. وأمير الجماعة.. وضاعت فى هذه - الزحمة - كتابات الطهطاوى، ومحمد عبده، وبقية كوكبة التنوير المصرى الرائد.

وبستطرد ميلاد حلمى قائلاً: ومن يظن ان الموجة قد انحسرت أذكره بان الموجة ليست هى الغرض، وانما الغرض: ما المراد من مجتمعنا ومن ثقافتنا؟ فالمشكلة ليست فى أننا دخلنا طرفاً لتحالف الولايات المتحدة مع باكستان بلخلق حركة ايديولوجية عالمية لصعد الشيوعية.. المشكلة هى كيف يكون بيننا فى نهاية القرن العشرين مواطن مصرى يصدق كل هذه الخزعيلات، اتفهم ان يغزونا الغرب بفكره وعلمه ولكن.. كيف.

فمصر كما ترى ليست طه حسين والعقاد ونجيب محفوظ ويوسف شاهين.. فقد يستطيع هؤلاء التأثير لكن هناك الملايين التى تنساق وراء الخرافات. فمصر ليست عدة مثقفين او كتابا بل الملايين من اناصاف المتعلمين واناصاف الجهلة، ولذلك يجب اعادة النظر فى سياستنا الثقافية.. فالكف لايجدى، وطباعة الآلاف الكتب واقامة المدارس

لإلهامها منه فى إثراء هذا الحوار الذى تفتحه «فكر عربى» منذ أربعة أسابيع يعلق الروائى المصرى ميلاد حلمى الذى يعيش فى باريس منذ نحو ربع قرن على قضية الغزو الثقافى المصرى للعالم العربى.. فيقول بداية لا يسعنى إلا أن أقرر أن الغزو الثقافى وهم لا وجود له، إذ لم يعرف التاريخ «ثقافة ما» غزت غيرها وغيّرت من خصائصها..

صحيح هناك صراع دائم لا يتوقف بين أنماط ثقافية مختلفة، وهناك أيضاً تفاعل وتأثير بين ثقافات متباينة داخل أى مجتمع وبين هذا المجتمع وغيره من المجتمعات.. وصحيح أن هناك ثقافة سائدة، هذه الثقافة كانت أسطورية يوماً ما ثم دينية، واليوم هى عقلية، ودخل هذه الثقافة السائدة يسمح بثقافات جانبية تتلاءم مع ظروف كل بلد وتركيبته منذ ثقافة تعارض حكم العقل وتقوم اليوم ليقوم لنا ثقافة تعارض حكم العقل وتقوم على الغيبيات فى اليوم الذى هيبت فيه مركبة على سطح أريخ.. فإن هذا الشخص اما جاهل أو معنوه.

والحال ان الثقافة كالرياح، تهب على المناطق المفرغة ثقافياً، والفرغ الثقافى يحدث حين يشعر الانسان بأن الفكر المقدم له لايجب على احتياجاته الحضارية، وان النمط الثقافى السائد لا يحقق أحلامه، هنا يبدأ الانسان فى متابعة مايجرى فى المجتمعات الأخرى، ويقارن بين ماتتجه الانماط الثقافية المختلفة.. والتاريخ يعلمنا ان عملية المقارنة هذه لم تتوقف منذ فجر الحضارة بل إنها اساس التقدم نفسه، فنحن نعيش كما يقول طه حسين فى حضارة واحدة، واليوم - مع ثورات الاتصال - أصبحت الكرة الأرضية قرية صغيرة. فكل الثقافات والحضارات مفتوحة على بعضها. ورغم كل ذلك مازالت كل ثقافة تحافظ على خصوصيتها.. فالمجتمع اليابانى مثلاً رغم استيعابه لثقافة العصر - العقل - وظل يابانياً. ولم يتحول إلى مجتمع امريكى أو فرنسى! وأيرلندا التى فرضت عليها اللغة الانجليزية فضلت الاحتفاظ بلغة الاسكتلندية حتى بعد الاستقلال وبقيت الخصائص الايرلندية - الجارليكة - تعيش فى نفوس الايرلنديين وتعتبر عن هويتهم. فلم يعرف التاريخ حضارة أو شعباً اراد ان ينسب لنفسه ملكية الحضارة الانسانية، فكل الشعوب ساهمت فى بناء تلك الحضارة التى نلهمها اليوم. والاختلاف فى الخصائص الثقافية هو جزء من مكونات الحضارة الانسانية اثرائها بل هو مكون من مكوناتها الاساسية.

والغلبة - على كل حال - فى كل عصر لمن يتمكن من استيعاب ثقافة وعلوم من سبقه ثم الاضافة عليها بجديد. وطريق الصراع مفتوح، فالحضارة كانت يوماً ما بابلية واشورية او فرعونية ثم اصبحت يونانية رومانية او عربية.. وغدا قد تكون يابانية او صينية أو حتى كورية، فالقدرة على العمل والعطاء والتجديد والابتكار هى المحك الأول والاخير.

ضممت هذه اثناء ميلاد حلمى لحظة خمدية.

فالكف لايجدى، وطباعة الآلاف الكتب واقامة المدارس

مايدرس فى هذه المدارس. وبالنسبة للناصرية لا أحد ينكر ان المد الناصرى كان له تأثير بالغ فى البلاد العربية، لكن الناصرية لم تطمح ابداً ان تكون فكراً كونياً، والفكر الاقليمى ذو تأثير ضيق. اما فكرة القومية فى حد ذاتها فلم تكن جديدة. وهى فى حد ذاتها لا تصيف جديداً الى الفكر.

وبالطبع كان للقومية العربية تأثير السحر فى الجماهير. وكان لمصر الريادة فى مقاومة الاستعمار وحركات التحرر والاستقلال ثم التعريب.. لكن للأسف كان اغلاق ناصر باب الحوار بين التيارات الفكرية ودفنه للديمقراطية فى مصر بداية للانهيال الذى كان حتمياً.. فقدرته أى حضارة على السمو والتقدم تكمن فى قدرتها على طرح الاسئلة وإدارة الحوار بين التيارات المتصارعة داخل المجتمع، فطرح السؤال وحده هو الموضوعى، أما الاجابات فهى دائماً ذاتية وتختلف من زمن لآخر. فمن يدري؟ ربما كنا خرجنا من الحوار القائم بين التيارات المختلفة من قومية الى فرعونية، ومن اشتراكية الى ليبرالية ومن اسلامية الى علمانية بنوع من الهوية الحضارية بخصاً.. فنحن فى نهاية الامر كل ذلك.. ومن ثم ننطلق فى حلبة الصراع لتساهلهم فى التجديد لكن اختيار الحل القومى ودفن باقى التيارات أدى الى عقم الساحة الفكرية. فمن بقى خارج السجون، لجأ الى الصمت او الهجرة مما أضعف الحياة الثقافية. فالابداع لا يتم فى مجتمعات القهر، وان كان هناك ابداع فهو ابداع نخبة متقوقعة على نفسها لا يصل انتاجها الى العامة، وهكذا كسرت الفترة الناصرية الامكانات الواعدة والحوار المتواصل منذ منتصف القرن التاسع عشر وكانت هزيمة ٦٧..

والحق لقد كانت هذه الهزيمة شتاء، ليس فقط لانها هزيمة ولكن، فى الطرق التى اتبعت لتحقيقها، فبدلاً من دراسة الامر دراسة علمية للوصول لأسباب الهزيمة، راحت السلطات تفرق الشعب فى متهاتات اللاعقلانية، فكثر الحديث عن المعجزات وفى هذا الوقت مثلاً ظهرت العذراء فى القاهرة، فلم يكن السادات وحده يملك الحلول السحرية لمشاكله، فالكف مستعد لهدم الثقافة واغرق الشعب فى الخرافات.. وبالهزيمة انهيار المشروع القومى باكمل، فالخيار القومى حتى يبقى قويا كان يلزمه «دفعه فكرية» حضارية لاتتم إلا بابقائه على التيارات الأخرى، تتحاور معه وتعدل من مساره بل وتحل محله إذا تطلب الامر ذلك.. ولم يجد العربى أمامه بعد هذا الانهيال إلا البحث عن بديل للقومية فكان المد الشعبوى من بربرية قبلية فى الغرب الى حقيقية اشورية فى المشرق فرعونية فى مصر نفسها.. ثم النظر والتطلع للغرب فى كل مكان.

ويختم الروائى ميلاد حلمى مداخلته فى هذا النقاش حول الثقافة المصرية مالها وماعليها فيقول: للخروج من المازق الثقافى الذى نعيشه وحتى تعود الثقافة المصرية أيام مجدها، يجب اتاحة الفرصة لجميع التيارات الفكرية - أقول جميعها - ان تعبر عن نفسها، فالحرية هى الشرط الاساسى لنمو الفكر، والديمقراطية الحقيقية هى المجال الحيوى الذى يطبق فيه الفكر، والفكر المضاد..

وبفتح الحوار بين الثقافة السائدة فى أى مجتمع، والثقافة المناهضة يتقدم المجتمع من خلال عملية الحوار نفسها، فالفكرة لابد ان تقارع الفكرة، كما يجب تأمين على حياته وتوصيل فكره لمن يريد ان يطعنه بسكين، فسياسته تنوير النخبة والكودان وتجهيل العامة ستجعل نهضتنا معرضة للسقوط بسهولة. وحتى الفئابل الافريقية البدائية سيكون لها حظ فى غزونا ثقافياً.

لأشك اننا نختلف مع الروائى المصرى ميلاد حلمى فى كثير مما ورد فى مساهمته هذه، لكننا لقناعتنا فى حق الآخرين ان يشاركونا فى هذا النقاش الموسع حول دور مصر الثقافى، عرضنا وجهة نظره دون تعليق من جانبنا، آمين ان يفسح ميلاد حلمى والآخرين مجالات أرحب للنقاش الموضوعى والصريح والأمين.

الأول والاخير.

قائلاً: الثقافة فى مصر اليوم لاستطيع ان تؤثر فى غيرها، بل إنها فى حالة «دفاع عن النفس» حتى لاتعود للصور الوسطى المظلمة.. الثقافة المصرية كانت مؤثرة - لا أقول غالبة بالطبع - مرة واحدة فى ذمة التاريخ، كان ذلك فى العهد الفرعونى يوم انتجت مصر فكراً اقامت عليه حضارة تبهى العالم كله إلى اليوم. كان تأثير هذا الفكر المصرى كبيراً حتى انه امتد بسهولة خارج مصر، قرأنا أول فلاسفة اليونان «طاليس» يأخذ عن الاسطورة المصرية ان الماء هو أصل الوجود.. ولم يكن بالمصادفة ان يكون نفسه الفيلسوف هو ناقل الهندسة المصرية الى اليونانية.. وقد بلغ اوج تأثير هذه الحضارة فى عهد الأسرة الفرعونية فى فترة صعود الاله اوزيريس، فقد امتد تأثير اوزيريس خارج مصر ليشمل كل بلاد المتوسط وجزره.. وظلت معابده قائمة حتى بعد انتشار المسيحية.. كل ذلك لان الاسطورة المصرية كانت تعبر عن رغبة دينية تلاعب أحلام انسان ذلك العصر ألا وهى الرغبة فى الخلود.

هذه الاسطورة هى نموذج لفكر مصرى خالص اثر فى مصر، وفى غيرها من البلدان، ولكن حين يأتى مفكر كبير مثل لويس عوض ويستوعب هذه الاسطورة، ويقدم لنا فى شكل عصرى مسرحية «محاكمة ايزيس» فالامر يخرج من نطاق الماضى ليتواصل مع الحاضر مقدماً حلولاً لمشاكل عصرية نلهمها اليوم..

وعلى أية حال - والكلام مازال لميلاد حلمى - فان مصر لم تنتج فى نهضتها الحديثة فكراً حتى تؤثر فى غيرها من البلدان العربية، فالفكر وحده وهو القادر على التأثير.. والثقافة الفرنسية مثلاً تقوم على أساس متين من الفكر الانسانى المشبع بمبادئ الثورة الفرنسية القائم على مبادئ الحرية والاخاء والمساواة.. هذا الفكر استطاع بناء مجتمع حضارى علمانى مفتوح قائم على احترام كل الافكار والادمان والخصوصيات والحساسيات والجمع بينها فى تسامح.. هذا مثال على النموذج لفكر صريح مع نفسه، معن، ناقد لنفسه ولعيوبه تعترف بلحظات ضعفه وهوانه.. وراء هذا الفكر يقف الفيلم السينمائى والجامعة والابحاث والمعاهد العالية.. إلى تغيير الصعوبات الاقتصادية الاخيرة من معتقدات الفرنسى فى شئ.. هذا باختصار صورة للنمط الحضارى القادر على التأثير فى غيره من الانماط..

أما فى مصر.. فلم نعرف منذ بدء نهضتنا الحديثة نموذجاً مصرياً متكامل الاوصال.. فمصر محمد على تختلف عن مصر عبدالناصر التى تختلف عن مصر السادات.. ومن منتصف القرن الماضى والتيارات الفكرية المتصارعة من اسلامية إلى قومية.. من مصرية إلى عربية ومن اشتراكية إلى ليبرالية.. ومازالت تتصارع من نفسى المطلقات كأنها تدور حول نفسها فاشلة فى ايجاد نمط حضارى مصرى، وان كان فى مجال الملابس!!

بالطبع كان لمصر فضل الريادة فى اخراج المنطقة من كلمات العصور الوسطى وإدخالها إلى العصر الحديث، والحال ان الخروج من ظلمة القبور كان عملاً جباراً فى حد ذاته حتى أننا اعتبرناه مقدماً، كان بالطبع تقدماً بالنسبة لنا، ولكننا..

نسبنا أنه كان بمثابة وضعنا فقط على الطريق السليم لغربنا من صناعى الحضارة. □ وفى رأى ان مصر تتعرض لتوعين من التأثير الثقافى.. فالتركيبية الثقافية الغربية التى حافظت على مايعرف بالاندواج الثقافى تطلبت بدورها أن جذبت نوعين من الثقافات:

● النوع الأول: وهو الثقافة الغربية التى مازالت تمارس تأثيرها على طبقة المثقفين المصريين سواء أكانت ليبرالية عربية فى نموذجها الفج (الامريكى) وان كان تقبل النموذج الامريكى مايزال اجد صدوداً عند غالبية الكتاب والمفكرين ام كانت ليبرالية مقننة مشبعة بالانسانية مثلاً على الطريفة الفرنسية حتى